وسائـــل ضبـــط المعـــارف واستحضـــارها

د. سليمان بن ناصر العبودي•

الملخـــص

تناول البحث وسائل ضبط المعارف واستحضارها ويهدف البحث إلى إبراز وسائل ضبط العلم وطرائق استحضاره، وبيان أهميتها وأثرها على العالم والمتعلم، والكشف عن كون هذه المشكلة حاضرة لدى العلماء قديما وحديثا، وأنهم أبانوا عن مدى إشكالها وطرائق تلافيها. وتتمثل أهمية البحث: ما عالم ولا متعلم إلا ويشعر بأهمية معرفة وسائل الضبط والإتقان. وبيان أن الانتفاع بالمعرفة الإنسانية إذا كانت حاضرة باقية، وأما العلم الذي لا يستظهر ولا يستحضر فهو أشبه بالعدم. والتطرق للموضوع قديما وحديثًا وعالجوه نظريًّا وعمليًّا. استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الاستقرائي .من النتائج: السؤال عن نسيان المعارف يُطرح في مدارج الطلب عادةً على شِقَّين: سؤال عن شرود المعرفة، وسؤال عن كمونها وعدم القدرة على استثمارها مع وجودها. العلم لا يمكن أن يكون ثمرةَ خصلة واحدة كالفهم أو الحفظ أو الاستحضار، لكن تغلب في بعض المواقف خصلة على أخرى. ومن أهم التوصيات: الاهتمام بالعلوم الشرعية والأطروحات الفكرية والشخصيات والكتب ومدرستها . التدريب استحضار المعارف الكامنة ويفتنُّون في تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة.

• الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية – جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية.

Abstract

The research dealt with the means of controlling and evoking knowledge, and the research aims to highlight the means of regulating knowledge and the methods of evoking it, and to indicate its importance and impact on the world and the learner, and to reveal that this problem is present among scholars, ancient and modern, and that they showed the extent of its forms and ways to avoid it. The importance of the research is: There is neither a scholar nor an educated person who does not feel the importance of knowing the means of control and mastery. And a statement that benefiting from human knowledge if it is present and remains, and as for knowledge that is not memorized or recalled, it is more like non-existence. They dealt with the subject, old and new, and dealt with it theoretically and practically. The researcher used the descriptive analytical method and the inductive method. From the results: The question about forgetting knowledge is usually asked in two parts: a question about the wandering of knowledge, and a question about its latency and the inability to invest it with its existence. Knowledge cannot be the fruit of a single trait, such as understanding, memorization, or remembering, but in some situations one trait is superior to another. Among the most important recommendations: Paying attention to Islamic sciences, intellectual theses, personalities, books, and their school. Training evoke latent knowledge and are fascinated by turning the scientific material on different faces.

مقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، وخالق الخلق أجمعين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين، وحجة على العباد إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه الذين ساروا على نهجه في إتباع القرآن الكريم وهدي سيد المرسلين، فسارت راياتهم في الآفاق مشرقين ومغربين، أمَّا بعد:

فإن غاية الإنسان في هذه الدنيا تحقيقُ العبودية لله رب العالمين، فهي التي عليها مناط التكليف، وعليها تدور الرسالات السماوية كلها، ولا يمكن تحصيل العبودية على الوجه الصحيح إلا بالعلم الصحيح النافع، قال تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وهذا العلم النافع تعترض سالكه آفات، ومن أهمها وأشهرها آفة نسيانه وآفة الغفلة عن استحضاره، وطالما شكا طالبو المعارف من كثرة تفلُّتها من صدورهم، ومن غيابها حال كونهم في أمسِّ الحاجة إليها، وقد ذكر العلماء سابقًا ولاحقا بعض وسائل ضبط العلم، ورأيت أن أجمع في هذا البحث بعض هذه الوسائل، عسى أن ينتفع بها من يصبو إلى إتقان العلم والانتفاع به وقت الحاجة إليه.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إبراز وسائل ضبط العلم وطرائق استحضاره، وبيان أهميتها وأثرها على العالم والمتعلم، والكشف عن كون هذه المشكلة حاضرة لدى العلماء قديما وحديثا، وأنهم أبانوا عن مدى إشكالها وطرائق تلافيها.

أهمية البحث:

البحث في غاية الأهمية بالنظر للأسباب التالية:

١. ما عالم ولا متعلم إلا ويشعر بأهمية معرفة وسائل الضبط والإتقان.

٢. المعرفة الإنسانية إنما ينتفع بها إذا كانت حاضرة باقية، وأما العلم الذي لا

يستظهر ولا يستحضر فهو أشبه بالعدم.

٣. لأهمية هذا الموضوع تطرق العلماء له قديما وحديثًا وعالجوه نظريًّا وعمليًّا.

منهج البحث :

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الاستقرائي .

خطة البحث:

تناولت الموضوع في المباحث التالية:

- المقدمة.
- المبحث الأول: المعرفة الشاردة.
  - المطلب الأول: إشكالية المعرفة الشاردة.
  - المطلب الثاني: وسيلة ضبط المعرفة.
- المبحث الثاني: المعرفة الكامنة.
  - المطلب الأول: إشكالية المعرفة الكامنة.
  - المطلب الثاني: وسيلة استحضار المعرفة.
- الخاتمة.
- المراجع.

ومن الله سبحانه أستمد العون والرشاد.

المبحث الأول

المعرفة الشاردة

المطلب الأول

المعرفة الشاردة

من الأسئلة المتكررة في مدارج التعلم السؤال عن كيفية ضبط المعارف وإتقانها، فكثير من المتعلمين يتساءل: أقرأ كثيرا ولا أستفيد فما الحل؟ ومن يقول: منذُ إغلاقي للكتاب لا أذكر المعلوماتِ التي بين دفَّتيه! ومَن يقول: هذه الفائدة سمعتها كثيرًا لكنها تستخفي عند تطلُّبِها والحاجة إليها، وهذا السؤال يؤرق كثيرين ممن يطلبون العلم، ويديمون القراءة، ويكثرون من المطالعة، فهناك قلق دائم من تفلت المعارف وزوالها. والتساؤلُ يُطرَحُ عادةً على شِقَّين: فالشقُّ الأول يتناول اضمحلال المعرفة وشرودها بعد وجودها، والشقُّ الثاني يتناول طرائق استحضار المعارف الموجودةِ الكامنة، فالأول يبحث في تَطَلُّبِ المفقود، والثاني يبحث في استثمار الموجود، وقد عقدتُّ هذا المبحث جوابا على الشقِّ الأول، وعقدت المبحث الثاني جوابا على الشِّقِّ الثاني.

والتمييز بين مرتبة اضمحلال المعرفة وشرودها بعد وجودِها، وبين مرتبة فوات استحضارها مع وجودها سَبَقَ إليه أهلُ العلم، فيفرّق الأصوليون بين النسيان والسهو، فالسهو عندهم أن يذهل عن الموجود، والنسيان أن يفقده مع تطلّبه إياه، ولذلك يقول السيوطي في نظم الكوكب:

والسهوُ أن يذهل عن معلومِة وفارقَ النِّسيانُ في عمومه

الأرضية العلمية:

أما الشق الأول من التساؤل فيجاب عنه بأنَّ بذورَ العلم عزيزةٌ لا تنبت في غير أرضِها، وحين تمتلك الأرضية العلمية لعلمٍ ما تستطيع أن تبني فوقها الأبراج

العاجية من المعارف وشواهق المعلومات دونما عناء، فالمعارف بطبيعتها سريعةُ التناسل كثيرةُ التوالد ولكن بعد بناء أساس التأصيل الصحيح.

إن الأرضية العلمية التي أعنيها هي أصول المسائل في باب ما من أبواب العلم، وهي تلك التي ينفق طالب العلم لأجلها وجه النهار وآخره، ثم إذا منَّ الله عليه باستقرارها في صدره وثباتِها في عقله؛ أصبحت مغناطيساً جاذِبًا لمعادنِ المعلومات العابرة، لا يكاد ينسى منها شيئا ،فالعلم كلما استقرت أصوله حول بابٍ ما؛ لانَت فروعه.

لدي قناعة تامة أن الفارق بين الناس في هذا الباب ليس متعلقاً –دائماً– بالفوارق الذهنية والقدرات العقلية، لذلك تجد بعضَ العوام يستقر في ذهنه من المعلومات في شؤون شتى أكثر عددًا مما هو مستقر في ذهن بعض طلاب العلم، وهذا يدل على أن الفارق ليس ذهنيا في الغالب، وتجد أيضاً من العوام من يتقن لأول وهلة أسماء رجال القبائل والأقارب والأسر والبيوت والأنساب وما بينها من الأسباب ما يقارب ما يحفظه بعض المحدثين من أسماء رجال الرواية والإسناد، والباب واحد –فكلاهما أسماء– لكن تباينت الاهتمامات!

سأضرب مثالا يقرِّب المقصود وإن كان لا يفي بنقل الصورة من كل زواياها، ثم سأذكر وسيلة من وسائل ضبط أصول العلم على سبيل الإشارة لا البسط ..

لو قيل لأحد لم يسمع يوما ما بالفقيه الشافعي المزني:

١– هناك فقيه حاذق اسمه إسماعيل بن يحيى المزني.

٢– من كبار الآخذين عن الشافعي .

٣– نصر مذهب إمامه، وقال الشافعي عنه: المُزنيّ ناصِر مذهبي.

٤– كانت له مناظرات عديدة، وكان قويَّ الحجة، دقيق الفهم، يلتقط المعانِي الدقيقة.

٥– له كتاب المختصر في مذهب الشافعي .

فلن يبقى معه بعد أسبوع عن هذا الفقيه –إن بقيَ– إلا اسمه!

لكن لو قيل لآخر لديه تصور دقيق وخلفيَّة مُسبَقَة عن المزني أو قرأ له مصنفا أو حفظ له متنا، ثم ذُكر له عنه –ولو معلومةً عابرة– بأنه مثلا: خالُ أبي جعفر الطحاوي! أو أنه هو والربيع بن سليمان رضِيعان! فنسيان هذه المعلومة بالنسبة له أصعب من تذكرها ..!

وهذه هي نفسها هي فِكرة التفقُّه على قول واحد ثم تَصعيد النَّظَر إلى ما وراء ذلك من الخلاف النازل والعالي..؛ لأن المطالعَ لفقه المذاهب يَبني على أُسُسٍ موجودةٍ ويضمّ النظير للنظير ولا يَكاد يشكل عليه شيء بعد ضبط كتابٍ ما..

ولنابغةِ المغرب الموسوعي الإمام أبي عمر ابن عبد البر في كتابه التمهيد إشارة لطيفة لمعنى ضبط الأصول واستذكار الفروع، فبعد أن أورد حديث عَبدِ اللَّه بن عُمر أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل صاحب القرآن،كمثل صاحب الإبل المعقَّلة ، إن عاهد عليها،أمسكها،وإن أطلقها ذهبت» تحدث عن ذهاب القرآن إن لم يتعاهد فكيف بغيره من العلوم ثم قال: (وخير العلوم مَا ضبط أصله واستذكر فرعه، وقاد إلى الله تعالى ودلَّ على ما يرضاه)[1]، فالعقل بطبعه لا يقيم الأصل إلا بمكابدة وعناء ثم إذا استقرَّ الأصل؛ أقام عليه بنيان الفروع وربط بين المعلومات وضم النظير إلى النظير وقسَّم وفرزَ ورتَّبَ بطريقة تلقائية مدهشة لمن تأمل!

كان لديَّ بعضُ إيمانٍ بأنَّ العلمَ كلما كثُر سهُلَ حفظه، وقادت أصولُ المسائل رقاب أخواتها داخل الذِّهن، وأن المتعلِّمَ كلما ضبطَ وعانى قدرا واسعا من المسائل وأتقن كثيرا من الأبواب أصبح يحفظ في ذلك الباب من مرَّةٍ ومرتين.. ونظرةٍ ونظرتين! ثم وجدت إشاراتٍ لطيفةً لعدد من الأعلام في هذا البابِ، من ذلك ما ذكره أبو عثمان الجاحظ في رسائله تنظيرا لهذا المعنى ونقله عن أبي بكر ابن الأصم؛ قال الجاحظ: (ذكر أبو بكر ابنُ الأصم ابنَ المقفع فقال: ما رأيت شيئا

(١) المرجع السابق (١٤/ ١٣١- ١٣٤).

إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم، فإنه كلما كثُر خفَّ حمله..)[1]، وقال البرهان الزرنوجي الحنفي: (كان أستاذنا القاضي.. يقول: ينبغي للمتفقه أن يحفظ كتابا واحدا من كتب الفقه دائما، فيتيسر له بعد ذلك حفظ ما سمع من الفقه)[2] نَعم.. فهذا المعنى في ذكر خِفَّة العلم إذا كَثُر؛ هو أمثلُ التفسيرات لضبطِ العالم دقائقَ العلم في أبوابٍ أتقن أصولَها، ولاشك أن ثمةَ تفسيرات أخرى عاضِدة تتعلق بتباين القدرات الذاتية وتفاوت الطاقات العقلية وقوة الصبر والاحتمال! فمن التسطيح توحيد أسباب الظواهر القابلة للبسط والعدِّ!

المطلب الثاني

وسيلة ضبط المعرفة

هناك وسائل عديدة في ضبط المعرفة ببناء الأساس، ولن أتمكن في هذا المطلب إلا بالإشارة إلى إحدى هذه الوسائل،وهذه الوسيلة كان بعض العلماء قديمًا وحديثًا حفيًا بها، ومن جربها وجدَ ثمرتها يانعة، ولكنها كشأن بقية الوسائل في الطَّلَب نجاحُها رَهين قدرةِ المتعلم على الجلَد والاحتمالِ. ألا وهي وسيلة "التلخيص والاختصار"،وهذه الوسيلة في ضبط المعارف كانت شائعةً لدى العلماء في القديم والحديث، وهم يتفاوتون في مدى استعمالها، لكن كانت لبعضهم حفاوةٌ زائدة بها، وأذكر من أولئك مؤرخ الإسلام الذهبي رحمه الله، فقد يستغرب الناظر من كثرة مختصراته للكتب التي أنجزها أيامَ الطلب، وهو خلالَ كتبه يشيرُ إلى بعض مختصراته، ويومئ أحياناً بذكر الباعث لهذا الاختصار، فحينما تحدث عن بعض مسائل الإيمان، قال: (هذه مسألة كبيرة، قد صنف فيها العلماء كتبا، وجَمع فِيهَا الإِمَام أَبُو العَبَّاسِ شَيخنَا مجلدا حَافِلا قَد اختَصَرتُهُ)[3]، وحين تطرق لكتاب المستدرك لأبي عبد الله الحاكم في السير قال: (وَبِكلّ حَال فَهوَ كِتَاب مُفيدٌ قَد

(١) الرسائل (٢/١٩٥).
(٢) عليم المتعلم (٦١).
(٣) السير (٢١/ ٤٣٢).

اختصرتُهُ)[١]، وحين أراد الدخول في كتابه "ميزان الاعتدال" قال: (وصنف أبو الفرج ابن الجوزي كتابا كبيرا في ذلك كنت اختصرته أولا ثم ذيَّلت عليه ذيلًا بعد ذيل)[٢]، فكان رحمه الله كثير التلخيص للكتب،ومطيلا لأمَدِ التفتيش في كتابٍ واحد،حتى قال عنه مؤرخ مكة تقي الدين الفاسي: (قل أن رأى كتابا لغيره إلا اختصره أو استدرك فيه أو انتقى منه)[٣]، فلم يكن الذهبيّ –مثلَنا– يسترق النظرَ استراقا لعيونِ المؤلفات والتصانيف، ثم يطويها وراء ظهره طيًا إلى ما سواها!

وربما شاع اختصار الذهبي للكتاب ونسي الناسُ أصله، ومن ذلك ما قاله أبو الحجاج المزي عن الذهبي: (الشيخ شمس الدين إذا اختصر شيئاً أذهبه) فاختلف الناس هل أراد المزِّي بـ "أذهبه": أعدمه؛ أم أراد حسَّنه بالذهب؟ قال الفاسي: الأول أقرب[٤].

ولم يكن الذهبيُّ وحدَه سالكا طريقة الاختصار في الطلب والتصنيف، فهذا ابن منظور –صاحب اللسان– يقول عنه الصفدي: (لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولا إلا وقد اختصره وزوّق عنقوده واعتصره)[٥].

ومن مقاصدِ الاختصار عند العلماء حذفُ الحشو والزائد والمكرر والاقتصار على ما يراه المختصر أصول العلم ليتسنَّى ضبطها ويسهل الإحاطةُ بها، ويصرح بعض المختصرين بهذا المقصد، ومن ذلك ما ذكره محمد بن عبد الرحمن الدندري لما اختصر نظمَ "الملحة في الإعراب"؛قال في أوَّلِ اختصاره:

وها أنا اخترتُ اختصارَ الملحة ... أمنحه الطلاب فهو منْحهْ

وفي الذي اختصرته الحشو سقط ... ليقرب الحفظ ويبعد الغلط[٦]

(١) المرجع السابق (٣٣/ ١٦٩)..
(٢) ميزان الاعتدال (١/ ٢).
(٣) تعريف ذوي العلا (٤٩).
(٤) المرجع السابق (٤٨).
(٥) أعيان العصر (٥/ ٢٧٠).
(٦) أعيان العصر للصفدي (٤/ ٤٩١).

ومن المُدْرَكِ أن نمط الاختصار والتلخيص للكتب الذائع خلال التاريخ الإسلامي؛ لم يكن بالضرورة بقصد التحصيل، وإنما هو نمط من أنماط التأليف العريق في التراث، لكن كانَ من أهل العلم قديما وحديثا مَنْ وَجَدَ في أسلوب التلخيص نفعا عظيما لنفسه حتى لا يكاد يعدل به وسيلةً أخرى من وسائل الطلب، فالكتاب الذي تلخصه يعادل قراءتك له ثلاث مرات بل أزيَد، لأن الاختصار يأتي لاحقا بعد القراءة الأولى الفاحصة، ثم إذا انتهى الطالب من التلخيص أعاد النظر فيه –أي التلخيص– مرةً ومرتين وهذه النظرة تجمع أصول مسائل الملخص بإذن الله في القلب، فبعد هذا يصبح للطالب أرضية علمية وتذوق خاص للباب الذي لخَّصه وتكون له فيه ملكة قابلة للتنامي، وهنا بعد وقت من مراجعة التلخيص يصل لمرحلة استقرار الفوائد في الباب لأدنى نظرة، وليس بالضرورة أن يلخص المتعلّم كتابا كاملا؛ فربما لخَّص مسألةً من المسائل عقدية أو فقهية أو أصولية أو غير ذلك.. كانت مشكلةً عنده، وربما بنى تلخيصه للمسألة ابتداءً على كتاب بعينه هو عمدةٌ في هذه المسألة، ثم جمع الفوائد والإضافات والتلخيص والاستدراكات التي لم يوردها صاحب الكتاب، ثم درس ملخَّصَه، ثم أعاد النظر فيه بعد مدة من اختمار المسائل في الذهن، فيكتشف أن بين يديه كتابا على وشك الولادة، وربما لم يكتب في تلك المسألة نحو هذا الكتاب الوليد! ومن أهل العلم من كان يشير إلى أنه عَمَد إلى اختصار موضع أو مسألة؛ كما ذكر النووي أنه عَمَد إلى تلخيص ما ذكره ابن عبد البر في مسألة من المسائل فقال: (قد أطنب أعلام المحدثين في إيضاح هذا، ومن أحسنهم له إيضاحًا الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في كتاب التمهيد في شرح الموطأ، وقد لخصت مقاصدَ ما ذكره)[1].

وعودًا على بدء نقول بأن كثيرا من الأذهان شديدة التقارب وأن غالبَ العقول بالغةُ التشابه، وإنما الفوارقُ بين الناس فيما يتعلق بضبطِ المعرفة تدورُ في كثيرٍ من الأحيان حول مدى تهيئة الأرضيَّة العلمية وبناء الأساس الصحيح.

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٨٥).

المبحث الثاني

المعرفة الكامنة

المطلب الأول

إشكالية المعرفة الكامنة

من المفارقات المشاهدة أن يوجد اثنان يشتركان في قوة الحفظ ويستويان في مقداره لكنهما يفترقان افتراقًا هائلا في استثماره وتوظيفه عند الحاجة إليه؛ فكم من حافظ للقرآن لا يخرم منه حرفًا؛ يعجز عن استحضار نصوص صريحة لا تحتاج إلى مهارة استنباطاً ودفعٍ للتعارض أو جمعٍ بين النصوص لاستخراج دلالة ضمنية من مجموعِها.

هذه المفارَقة التي تلوح كثيرا في مجامِع العلم تقودنا إلى إبراز تمييز ذكره بعض العلماء في كتب التراجم وأكثروا من الإشارة إليه والتنويه به، فحينما يريدون الإبانةَ عن علم العالم ويذكرون مميِّزاته التي فاقَ به أقرانَه كالحفظ والفقه وسعة الاطلاع على العلوم، فإنهم يُردِفون ذلك أحيانا بالحديث عن ملكته في استحضار المعارف الكامنة في صدره، ومدى استثماره المحفوظَ حينما يحتاجه، فيميِّزون الحافظَ من المستحضر، وأكثر من رأيته يشير لهذا التمييز ويعتني به هو الحافظ ابن حجر رحمه الله في ما جمَعَه من تراجم في كتابَيه (الدرر الكامنة) و(إنباء الغمر)، فربّما قال عن صاحب الترجمة مثلا: (كان كثير الاستحضار)[1]، أو (كان عجبا في الاستحضار)[2]، وربَّما عَطَفَ الاستحضار على الحفظ مغايرةً بينهما لا من باب عطف المثيل على مثيله كما يتوهم الناظرُ لأوَّلِ وهلة.

وربما ذكر الاستحضار دونَ الإشارة إلى اتساعِ المحفوظ أو مقداره أساسا، فعلى سبيل المثال، قال ابن حجر عن ابنِ كثير: (كان كثير الاستحضار

(١) إنباء الغمر (١/ ٤٦).
(٢) الدرر الكامنة (١/ ١٦٨).

قليل النسيان جيد الفهم)[1]، وحينما ساق ترجمتَه لشيخِه العِراقي ذكَرَ الهيثمي رحمهما الله، فوصف أحدَهما بالامتياز على الآخر بالحفظ، وامتياز الآخر عليه بالاستحضار، فقال: (وصار الهيثميُّ لشدّة ممارسته أكثر استحضارا للمتون من شيخه حتى يظن من لا خبرة له أنه أحفظ منه)[2]، فابنُ حجر يرى أن العراقيَّ أحفظ، والهيثمي أكثر استحضارا!

هناك وهمٌ شائعٌ لدى بعض الناس وذلك بجعلهم الاستحضار فرعا عن الفهم وملازما له، ويجعلون ثمةَ تقابُلا بين الحفاظ من جهة، والفقهاءِ المستحضرين من جهةٍ أخرى، فمن كان موصوفا بالفهم فهو بالضرورة قويّ الاستحضار، وهذا ليس صحيحا بهذا الإطلاق، فلا شك أن عُمْقَ الفَهم معينٌ على الاستحضار، لكنه ليس ملازمًا له بالضرورة، وقد قال ابن حجر عن أحد فقهاء الشافعية فيوقته: (حفظ التنبيه في ثمانية أشهر، وحفظ كثيرا من المختصرات .. وكان قليل الاستحضار إلا أنه جيد الذهن حسن التصرف)[3]، فابن حجر -رحمه الله- يصف هذا الفقيه الذي عاصره بكثرة المحفوظ وجودة الفهم وحسن التصرف إلا أنه رغم ذلك قليل الاستحضار لما يحفظه!

وأنت إذا أَجَلْتَ طرفك في المناظرات المنقولة في كتب أهل العلم تجد أن المتناظرَينِ في مسألةٍ لا يشترط تفاوتهما في المعطيات العلمية، وإنما كثيرا ما يقرأ أحدهما على الآخر دليلا -هو نصٌّ في المسألة- يشتركانِ في حِفْظِه قبل التناظر لكنه يغيب وتتوارى رقَبَتُه بين زِحام المعلومات .

وأصلُ هذه الظاهرة المألوفة يحصل لكل أحد مهما بلغ من متانة التأصيل وقوة الرسوخ،فينقطع عن اللسانِ في لحظةٍ ما مددُ القلب وتختفي عن ناظري المرء منارةُ الدليل فلا يراها مع شدة معرفته لها قبلُ، فإذا ذُكِّرَ المرءُ ذكَرَ وثابَ إلى الدليل،

(١) إنباء الغمر (١/ ٤٦).
(٢) المرجع السابق (٥/ ١٧٢).
(٣) المرجع السابق (٨/ ١٢٩).

كما غابت آية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل..) وآية (إنك ميت وإنهم ميتون) عن فاروق الأمة في الموقف العصيب وأدركها حين تلاها الصديق رضي الله عنهما فقال :(ما شعرت أنها في كتاب الله)[1]، فالعلم الإنساني بطبعِه يحضر ويغيب كما يقول ابن تيمية –رحمه الله– في توصيف نقص علم الإنسان: (وإن كان علمه في نفسه، فليس هو أمرا لازما للنفسلزوم الألوان للمتلونات، بل قد يذهل الإنسان عنه ويغفل.. فهو شيء يحضر تارة ويغيب أخرى)[2].

نماذج كاشفة:

أودُّ أن أسترسلَ قليلا في إيراد بعض النماذج التي تكشف بجلاء تفاوت الناس في استحضار المعارف الكامنة مع اشتراكهم في حفظِها، وقد أوردتُ مثالا لاستحضار الآيات، فسأورد مثال الاستحضار الحديث، ثم مثالا لاستحضار أشعار العرب.

أما المثال الأول فقد وقفت امرأة على مجلس فيه أكابر المحدثين: يحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وخلف بن سالم وغيرهم.. فسمعتهم يقولون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواه فلان وما حدث به غير فلان، فسألتهم المرأة عن الحائض تغسل الموتى –وكانت غاسلة– فلم يجبها أحد منهم، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض، وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم الإمام أبو ثور، فقيل لها: عليك بالرجل المُقبِل، فالتفتت إليه وقد دنا منها فسألته فقال: نعم تغسل الميت لحديث عثمان بن الأحنف عن القاسم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: (أما إن حيضتك ليست في يدك. ولقولها: كنت أفرق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالماء وأنا حائض. قال أبو ثور: فإذا فرقت رأس الحي بالماء فالميت أولى به) .

(١) مسند أحمد (٢٥٨٤١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٩).

اللطيف في الخبرِ أن المحدِّثين الذين شهدوا هذه المحاورة بين أبي ثور والمرأة السائلة؛ قالوا على الفور عن الحديث الذي رواه أبو ثور: نعم رواه فلان، ونعرفه من طريق كذا، وخاضوا في الطرق والروايات،فقالت المرأة متعجبةً منهم: فأين كنتم إلى الآن؟[1]

وأما الثاني فقد رأى هارون الرشيد مرةً في بعض أسفاره نارًا تضطرم بالليل من بعيد، فقال لمن معه من علماء اللغة وهم الأصمعي والكسائي واليزيدي: أنشدوني في هذه النار، وهؤلاء الثلاثة الذين سألهم الرشيد هم أقحاحُ اللغة وأوعيتها الكبار في ذلك الزمان، فأنشد الأصمعيُّ عدةَ أبيات، ولم يذكر اليزيدي والكسائي شيئًا، ولم ينبِسا بشطرِ بيت؛ فلما فرغ الأصمعيُّ من إنشاده؛ قال اليزيدي والكسائي للرشيد: والله يا أمير المؤمنين: ما أنشدك شيئًا إلا وقد عرفناه، ولكنه أحضرُ ذِهنًا منّا[2].

من أنعمَ النظر فلن ينازع في كون عامة النماذج المذكورة ليست متعلقة تعلُّقًا أوليًا باستنباط المعاني الغائرة في بطون الأدلة، وإنما هي في مجملها نصوصُ الأدلة، وقد راعيتُ ذلك في انتخاب النماذج؛ لأن الاستنباطَ قدر زائد على الاستحضار،فالاستنباط هو استحضار مركّب من استذكار الدليل والدلالة، وإن كان يراعى أن مخرجاتِ العلم لا يمكن أن تكون ثمرة خصلةٍ واحدةٍ من خصاله كالاستحضار أو الحفظ أو الفهم أو الاستنباط، لكن تغلِب على بعضِ المواقف خصلةٌ على أخرى، وليس المراد بهذا الاستحضار هو استحضار ألفاظ النصوص وإن كان ذلك أكمل صور الاستحضار، وإنما يتضمن حديثنا هنا استحضار الألفاظ والمعاني.

المطلب الثاني

وسيلة استحضار المعرفة

أَجَلْتُ بصَري في الكثير مما كتب في هذا الموضوع ووجدت أن الحلل جانبان: أما الأول فهو المادّة المُدخَلة وتقليبها على وجوه مختلفة، وأما الثاني فهو

(١) المحدّث الفاصل للرامهرمزي (١/ ٢٤٩).
(٢) طبقات النحويين للزبيدي (١٦٩).

تفعيل النظرة الشاملة.

١/ مساءلة المادة المدخلة وتقليبها على وجوه مختلفة : المعلومات التي يختزنها طالب العلم أيام الطلبِ وأزمنة التحصيل هي مواد مصمَتة (خام)، وهي على سبيل المثال نصوصٌ قرآنية، أو أحاديث كتاب أحكام، أو قصائد مطوّلة دلَفت إلى الذهن قطعةً واحدة، ودخولها بهذه الصورة يعرقل استثمارها عند الحاجة إليها ويجعلها غير قابلة للتجزئة والفرز والتفريق واستخراج النص المطلوب لحظة الاحتياج إليه ما لم تخضع لتقنية المساءلة الدائمة، وتتخذ هذه المساءلة أشكالا متعددة، إما كثرة التأمل الذاتي للمعارف المختزنة في تلافيف العقل ومحاولة كشف النظائر وبيان الفروق،والقراءةُ بلا تأمل ولا تفكر ولا إعمال للذهن هي مجرد إرهاق للعينين والرقبة، وإمّا المباحثةُ للأقران ومدارستُهم على ما سيأتي بيانه.

والمحصّل من تقنية المساءلة شحذُ الذهن ونفضُ الغبار الذي يسرع في التراكم فوق رفوف المعارف إن ظلّت مستكنةً حبيسةَ الفؤاد.

ثمةَ تحفّز عقلي يجده طالب العلم زمنَ المدارسة العلمية، وهناك توثّب روحي لحظةَ التناظر بين الأقران بالمعارف، وهذه الحالة الانفعالية للنفس هي وحدها الملائمة لتمهيد طريق معبّد تنال منه المعارف من الذهن تِباعا عند الحاجة إليها لاحقا، بخلاف حالِ ذلك المنزوي حينما يقرأ ويحفظ باسترخاء تام في زاوية مكتبته، فإنَّه كثيرا ما تبقى أرضُ معارفه بِكرا لم تشقّها معاول البحث والمساءلة؛ فربما انتهى إلى ما عبّر عنه ابن حجر عن حال أحدهم بأنه (كان في أول أمره ذكيا فطِنا ،رأيتُ خطوط فضلاء ذلك العصر في طبقات السماع تصفه بالحفظ ونحوه من الصفات العلمية،ولكن لما رأيناه لم يكن في الاستحضار ولا في التصرف بذاك فكأنه لما طال عمره استروح وغلبت عليه الكتابة فوقف

ذهنه)[1]، وتأمل التحليلَ والتعليلَ الذي ذكره ابن حجر بأن سبب ضمور الاستحضار عند هذا الرجل: الاستراوحُ وغلبةُ الكتابة؛ فوقفَ الذهن!

وسببُ الإفادة من المباحثَات في تنمية ملكة الاستحضار هو أن طالب العلم يظلُّ ساعة النقاش مسخِّرا جميع طاقته، وموظِّفا كاملَ حواسّه لاستذكار كلِّ ما لديه قبل المباحثة، ولضبط كل ما يقوله مُناظِرُه في أثنائها، ولتدارك كل ما فاته بعدها، فهذا الجوُّ المتحفِّز هو أكثر الأجواء قابليةً لرفع مستوى الانتفاع بالمعارف المدَّخَرة، وهذا متصل بما تذكره الخبرة الحديثة في مجال علم الذاكرة في ما يسمونه بـ (الموقف الانفعالي): بأن الأحداث والخبرات المشحونة انفعاليا (بانفعالات سلبية أو إيجابية) يسهُل تذكرها أكثر من الخبرات التي لم ترافقها مثل هذه الانفعالات، وهو ما سماه بعض الباحثين في هذا المجال بـ)الذاكرة الانفعالية) .

ومعنى الإفادة من المباحثة بين الأقرانِ تحصيلا لملكة الاستحضار أشار إليه عددٌ من العلماء، فمن ذلك ما أشار إليه الرافعي –رحمه الله– في رسائله بقوله: (المناقشة من أنفع الوسائل في تثبيت المسائل في الذهن وقلما ينسى الإنسان مسألةً ناقش فيها)[2].

وأشار لهذا المعنى من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–وأومأ إلى أثره على الاستحضار بقوله: (ما رأيت أحدا لاحى الرجال إلا أخذ بجوامع الكلم) قال يحيى بن مزين: (يريد بالملاحاة هنا المخاوضة والمراجعة على وجه التعليم والتفهم والمذاكرة والمدارسة)[3].

حينما يريد باحثان يكتب عن ملكة الاستحضار ووسائل تنميتها، فإنه لا يستطيع شخصية ابن تيمية،ويعنينا في هذا المطلب أن ننقل ما يتعلق بملكة

(١) ذيل الدرر الكامنة (١٢٢).
(٢) رسائل الرافعي (٢٢٦).
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (٢/ ١٠٨).

الاستحضار؛ فيقول الذهبي في ذكر استحضار ابن تيمية للنصوص القرآنية: (وله في استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة)[١]، وقد اجتمع بابن تيمية العلامةُ الشافعي المتفنن أبو الفتح ابن دقيق العيد فسُئِلَ عنه بعد اجتماعه به كيف رأيته؟ فقال: (رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء)[٢].

لا ريبَ أن وراء هذا الاستحضار المبهر ذاكرةً وقّادة ومواهب جِبِلِّيّة، لكني أحب أن أشير إلى السبب الذي يتعلق بهذا المبحث، وهو كون معارف ابن تيمية كانت تتعرض باستمرار لمعاول الاستخراج الدائمة والمباحثة المستمرّة، ولم يقتصر ذلك الاستخراج على زمن كهولته بل حتى أيام اليَفَاعة، كما يقول عن مناظرته للمتكلمين أيام صباه: (وأذكر أني قلت مرةً لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم – وأنا إذ ذاك صغير قَرِيبُ العهد من الاحتلام –: كلُّ ما يقوله هؤلاء ففيه باطل إمّا في الدلائل وإما في المسائل..). ولم يقتصر على نزح معارفه في ساعات اليقظة؛ بل حتى حينما خلدَ للنوم مرَّةً.. استمرَّ الصبي الحرّاني في مساءَلة المعارف واستخراجِها؛ كما يقول: (كنت أرى في منامي ابن سينا وأناظره، وأقول له: أنتم تزعمون أنكم عقلاء العالم وأذكياء الخلق، وتقولون مثل هذا الكلام الذي لا يقوله أضعف الناس عقلا..)[٣].

إن المرادَ بمساءلة المادّة المدخلة هو تحويلُ المادّة المصمَتة إلى إجابات مجزّأة قابلة للاستخراج عند الحاجة، فليست مقتصرةً على وسيلَتي التأمل والمناظرة، وإنما كلُّ ما أفاد الطالبَ كثرةَ حرثِ المادّة وبعثِها من مرقَدِها؛ فقطوف الاستحضار تزداد نضجًا ودنوّا، ويمسي حال طالب العلم بكثرة الممارسة كما يقول ابن حجر عن الهيثمي: (وصار كثير الاستحضار للمتون جدا لكثرة الممارسة)[٤].

(١) العقود الدرية لابن عبدالهادي (٤١)..
(٢) شذرات الذهب لابن العماد (٨/ ١٤٦).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٤) إنباء الغمر (٢/ ٣٠٩).

أما ما يتعلق بتقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة فلأنّ الطالب يُدخل المادة ابتداءً في سويداء قلبه قطعةً واحدةً، ومِنْثَمّ تمسي أيسر طريقة عليه لاستخراج شاهد منها هي تلاوتها أيضًا قطعةً واحدة، فإذا أراد أن يستشهد بالآية العاشرة من سورة النبأ اضطرّ لتلاوة السورة من أوّلها حتى يصل إلى محل الشاهد، وإذا همّ بالاستشهاد بالبيت الثامن في باب الفاعل اضطر للإنشاد من أول الباب إلى أن يظفر ببغيته، وأفضل ما يعين على تجاوز هذه الظاهرة الطبيعية هو تقليب المادة العلمية في الذهن على وجوه مختلفة، والتنويع في الإدخال على القلب لتسهيل اختلاس الشاهد من خبايا الذهن لحظة احتياجِه، ولهذا التقليب طرائق لا تحصى كثرةً، فمثلا لو تبارى مجموعة من الطلبة الحفاظ على استخراج آيات الجنة من ربع القرآن الأخير، أو آيات الملائكة في القرآن، أو تسابق ثلّة من حفاظ الزاد على سرد مسائل باب ما لا على ترتيب الماتن وإنما على ترتيب أدلة المسائل في الظهور مثلا،أو عمد حافظ المعلّقات إلى استخراج أبيات متعلقة ببعض المواضيع نحو أبيات الإيمان والشك بالبعث لدى شعراء المعلقات لكان لذلك أثره البيِّن في سرعة استحضار هذه الشواهد، وسيلحظ الحافظ ابتداءً نوعا من التعسر في أثناء استخراج الشواهد كأنما هو يمشي في طريقٍ مستوعر مليء بالحجارة، ثم مع مضيّ الوقت والاصطبار يتمرس الذهن على نزفِ المعارف الكامنة.

ومن طرائق تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة حفظ الشواهد ضمن سياقاتها التداوليّة؛ فمن الملاحظ أن حفظ أحاديث الأحكام من سياقاتها الفقهية يعين على ذكر الصورة والحكم والدليل معا، وكذا حفظ الشاهد اللغوي ضمن سياقه المرتبط بالشاهد والمناسبة يعين على تذكر ذلك كلِّه، وهذا أيضا ما تذكره الخبرة الحديثة وفقما يسمى عندهم بمبدأ (الاقترانِ والاشتراط) فالسياق

الذي يجري فيه تعلم مادة ما يساعد في استحضارها واسترجاعها كاملةً، ومن الشواهد المجربة في ذلك ما فسره عبد الوهاب المسيري في تعليل قوة استحضاره لكونه دائما يضع (كلَّ معلومةٍ أو حدثٍ داخل نمط؛ فاسترجاعه يكون سهلا)[1].

ومن طرائق تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة التي كان يفعلها بعض العلماء: إيراد آية ثم تحفيز أذهان الطلبة واستفزازه الذكر كل ما يتعلق بها نحوا أو فقها أو تفسيرا، ولا تصلح هذه الطريقة النافعة في تنمية ملكة الاستحضار إلا بإزاء شيخ متمكن، وهي ما كان يفعلها الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن بن جماعة في تمرينِه لطلابه، قال ابن حجر عنه: (ذكر لي القاضي جلال الدين البلقيني، أنه حضر دروسه، ووصفه بكثرة الاستحضار، قال: وكانت طريقته أنه يلقي الآية أو المسألة، فيتجاذب الطلبةُ القولَ في ذلك والبحث، وهو مُصْغ إليهم، إلى أن يتناهى ما عندهم، فيبتدئ فيقرر ما ذكروه، ثم يستدرك مَا لم يتعرضوا له، فيفيد غرائ بوفوائد)[2].

وتجد العلماءَ من القرون الأولى لديهم عنايةٌ بقضية استحضار العلم ويفتنُّون في تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة، فهذا الإمام البخاري -رحمه الله- يورد في صحيحه في باب (قول الله تعالى تعرج الملائكة والروح إليه وقوله تعالى إليه يصعد الكلم الطيب) حديثَ الخوارج، فيبين الحافظ ابن حجر رحمه الله أن الحديث جاء في بعض رواياته غير الرواية التي ذكرها البخاري في الباب المذكور لفظة: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، قال الحافظ: (وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة لكنه جرى على عادته في إدخال الحديث في الباب للفظة تكون في بعض طرقه هي المناسبة لذلك الباب يشير

(١) حوارات المسيري لسوزان حرفي (١/ ٤٢).
(٢) رفع الإصر (٢٩).

إليها ويريد بذلك شحذ الأذهان والبعث على كثرة الاستحضار)[1].

٢/ تفعيل النظرة الكلية: المعارف في كافة الحقول غزيرة التفاصيل كثيرة التشظّي ولا سبيل للإحاطة بها كلّها واستحضارها عند الحاجة إليها، فإن (الفروع لا حدّ لها تنتهي إليه أبدا)[2]، كما يقولُ ابنُ عبد البر في جامعه، لكنْ من نِعَم الله على الطالبين أن جعل لكل حقل معرفيّ قواعدَ جامعة تطوق أطراف هو تلَمُّ شعثَه، ولولا ذلك ما استطاع عالمٌ أن يصِل إلى مبتغاه ويحصّلَ مطلوبه، وقد أشار العلماء كثيرا إلى أهمية الاعتناء بالقواعد الكلية توطئةً لاستحضار التفاصيل الكثيرة، كما يقول الزركشي: (إن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة، هي أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها)، وكما يقول أبو العباس ابن تيمية: (لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل)[3]، وقد كان رحمه الله شديد الاحتفاء بالكليات وردّ الفروع الكثيرة إليها والتوكيد عليها في كل الفنون التي يتطرق إليها؛ كما يقول أحد الخبراء الكبار بكتبه وهو العالم عبد الرحمن السعدي رحمه الله في ذكر أعظم مميزات كتب ابن تيمية: (من أعظم ما فاقت به غيرها..الاعتناء بالتنبيه على القواعد الكلية، والأصول الجامعة، والضوابط المحيطة في كل فنٍّ من الفنون التي تكلم بها)[4]، وعلى سبيل المثال حينما انتقدَ ابنُ تيمية بعض التفريعات والتطويلات في باب الأيمان؛ ذكر أن الباب كلَّه يُضبط بثلاث قواعد، فقال: (ولا يحتاج باب الأيمان إلى تفريع إذ هذه الأصول الثلاثة تضبطه ضبطاً حسناً)[5].

ومن هنا فإنَّ من أساليب تحصيل ملكة النظرة الكلية هو كثرة القراءة والنظر في أمثال كتب ابن تيمية، وستلاحظ مع مرور الوقت أن الضوابطَ والقواعد لا

(١) فتح الباري (١٣/٥١٦).
(٢) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (١/ ١٧١).
(٣) منهاج السنة (٥/ ٨٣).
(٤) طريق الوصول (٥).
(٥) الاستقامة (١/ ١١).

تقتصر على ما يسميه العلماء بالقواعد، نحو القواعد الفقهية وقواعد التفسير وقواعد الصفات ونحوها -وإن كانت تدخل فيها أصالةً- وإنما لا تنتثر حبات الفروع في أي حقل إلا من خيط قاعدة كلية عَلِمها مَنْ عَلِمَها وجهِلها من جهِلها، والحاذق من القرَّاء هو الذي يستعلي في أثناء المطالعة عن الإغراق في جزئيات الأبواب بحثا عن القاعدة الناظِمَة، فإذا أمسك بها إما استنباطا ذاتيا خاضعا للاختبار والتجربة أو تنصيصا من أحد المحقّقينَ؛ أصبحَ شديد الاحتفاءِ بها، وبذل أغلب جهده في أثناء التعلم والحفظ والمطالعة والاسترجاع في الارتكاز عليها، فيختصر على نفسه مسافات زمنية شاسعة،وكلما ارتحلتْ -لاحقاً- من ذهنه التفاصيل المبعثرة اتكأ على الكلِّيّات التي تمرس بها؛ فتصطفُّ الجزئيات في خاطره تِباعاً.

فيكون لدى القارئ خلال النظر في المسائل عنايةٌ بالآيات التي هي أصول المسائل، وعنايةٌ بأحاديث الباب، وعنايةٌ بالقواعد الحاكمة، وإذا اشتغلَ بالفقه مثلا يكون لديه عناية فائقة بضوابط الأبواب تسهيل الاستحضار الفروع التي لا تنتهي، والضوابط الفقهية أخصّ من القواعد الفقهية، كما يقول ابن نجيم في الفرق بين الضابط والقاعدة: (القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى، والضابط يجمعها من باب واحد)[1].

وهذه النظرة الكلية المطلوبُ تفعيلُها ليست حكراً على مجال العلوم الشرعية، فحتى الأطروحات الفكرية والشخصيات والكتب إن لم توضع أصولها المجملة وروافِدها ومحركاتها الداخلية في بضعة سطور -ولو ذهنياً- فإن جزئياتها الصغيرة تضمحلُّ وتتلاشى مع تتابع مرور الزمن على الذهن، وكما يقول ابن القيم بأن (العالِم ينتبه للجزئيات بالقاعدة الكلية)[2].

(١) الأشباه والنظائر (٢/١٩٢)..
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٣).

وقد رأيتُ مَني ذُكر بغزارة الحفظ تَندُّ عن خاطره أجلى الشواهد، ومَن يحفظ قدرا يسيرا لكنه أحسنَ استثماره في كلّ مناسبة، وليس هذا تحفيزا على تقليل المحفوظ، وإنما القصد الحث على الانتفاع بما يملكه الإنسان كَثُرَ أم قلّ، وبعض الناس يعتقد أن فكرة التحفيز على التّقليل من المحفوظ هي فكرة معاصرة جاءت بها النظريات العصريّة في التعلُّم، وأن الأقدمين لم يُحفظ عنهم إلا الحثّ على الاستكثار من الحفظ، بينما تجد وصية الإمام مالك بن أنس لابني أخته أبي بكر وإسماعيل ابني أبي أويس حينما رآهما مُشتغلَين بعلم الحديث، فقال لهما: (أراكما تحبان هذا الشأن –جمع الحديث وسماعه– وتطلبانه) قالا: نعم. قال: (إن أحببتما أن تنتفعا به وينفع الله بكما فأقلّا من هو تفقها)[1].

والعالمَ ليس هو في عدد ما حفظه من نصوص وما جرَده من معارف ولكن فيما انتفع بها منها واستثمرها مهما كانت قليلةً، وملكة الاستحضار للمعارف الكامنة هي أهمُّ الملكات التي ينبغي لطالب العلم الاعتناء بتطويرها، فإنها رونق العِلم وأبَّهة العالم، وطالب العلم إنما تعلّم وعانى ليعرف الجوابَ حال الحاجة إليه، فإذا لم يستحضر الدليل أو لم يتذكر المعلومة التي بين جنبيه؛ فاتتْ عليه الثمرة التي كان يرتجيها، وعليه أن يبادر لتنمية هذه الملكة كيلا يقف الذهن مع طولِ زمان الأخذ، وتذوي ملكات العقل تدريجيا، فهي بطبيعتها سريعة الركود والاسترواح، وكما يقول الجاحظ بأن العقل (أطول رقدة من العين، وأحوج إلى الشحذ من السيف، وأفقر إلى التعاهد، وأسرع إلى التغير..)[2].

(١) الفقيه والمتفقه (١/ ٤٣٠).
(٢) رسائل الجاحظ (٣/ ١٠٤).

خاتمـــة

وفي ختام هذا البحث أقيد جملة من النتائج:

- السؤال عن نسيان المعارف يُطرح في مدارج الطلب عادةً على شِقَّين: سؤال عن شرود المعرفة، وسؤال عن كمونها وعدم القدرة على استثمارها مع وجودها.
- حين تمتلك الأرضية العلمية لعلمٍ ما تستطيع أن تبني فوقها بنيانا من المعارف بيسر وسهولة.
- من وسائل ضبط العلم المشهورة عند العلماء وسيلة الاختصار والتلخيص، والعلامة الذهبي كان شديد الحفاوة بها في أثناء طلبه للعلم .
- من مقاصد الاختصار حذف الحشو والزائد والمكرر ليسهل ضبط أصول الكتاب.
- الفوارق بين الناس فيما يتعلق بضبط المعرفة تتعلق غالبا بمدى تهيئة الأرضية العلمية وليست متعلقة فقط بالفوارق العقلية.
- المفارقة الحادة تظهر حينما ترى اثنين يشتركان في قدر المحفوظ لكنهما يتفاوتان تفاوتا هائلا في إمكانيات التوظيف ومدى الاستحضار للمعارف الكامنة.
- من التمييزات التي يذكرها بعض العلماء في كتب التراجم، التمييز بين الحافظ والمستحضر، والحافظ ابن حجر كان في تراجمه حفيا بالإشارة إلى ملكة استحضار العالم معارفَه الكامنة.
- من الأوهام الشائعة ربط قوة الاستحضار بعمق الفهم، وجعله فرعا عنه، وهذا المعنى غير صحيح بهذا الإطلاق، فابن حجر وصف عالما بسعة المحفوظ وجودة الذهن لكنه ضعيف الاستحضار.
- العلم الإنساني بطبعه يحضر ويغيب، فليس هو لازما لزوم الألوان للمتلونات.
- الاستنباط قدر زائد على الاستحضار، فهو استحضار مركَّب من استحضار الدليل والدلالة.

- العلم لا يمكن أن يكون ثمرةَ خصلة واحدة كالفهم أو الحفظ أو الاستحضار، لكن تغلب في بعض المواقف خصلة على أخرى.
- مساءلة المادة المدخلة، وتفعيل النظرة الشاملة هما قطبا رحى الاستحضار للمعارف.
- المعلومات التي يختزنها طالب العلم هي مواد مصمتة (خام)، ودوام بقائها بهذه الصورة يعرقل القدرة التامة على استثمارها.
- ثمة تحفز عقلي يجده طالب العلم زمن المدارسة العلمية، وهناك توثّب روحي يشعر به لحظةَ تناظره بين الأقران بالمعارف، وهذا التوثب هو خير معين لتنمية ملكة استحضار المعارف الكامنة.
- كثرة الممارسة للعلم بأي صورة كانت؛ هي أساس ملكة استحضار المعارف الكامنة.
- من طرائق تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة؛ حفظ الأدلة ضمن سياقاتها التداولية، كحفظ أحاديث الأحكام ضمن السياقات الفقهية.
- العلماء منذ القرون الأولى لديهم عناية بقضية استحضار المعارف الكامنة ويفتنُّون في تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة.
- من نعم الله على الطالبين أن جعل في كل حقل معرفي قواعد جامعة تطوِّق أطرافه وتلم شعثه.
- الضوابط والقواعد لا تقتصر مطلقا على ما يسميه العلماء قواعد كالقواعد الفقهية وقواعد الصفات، وإنما لا تنتثر حبات الفروع في أي حقل إلا من خيط قاعدة كلية .
- النظرة الكلية المطلوب تفعيلها لا تقتصر على مجال العلوم الشرعية، فحتى الأطروحات الفكرية والشخصيات والكتب من الممكن أن توضع أصولها وروافدها ومحركاتها الداخلية في بضعة أسطر.

- أشار ابن القيم إلى أن تحصيل النظرة الكلية يعين على معرفةِ حتى الجزئيات التي لم يطالعها الناظر.
- فكرة التقليل من المحفوظ العلمي ليسهل استثماره ليست فكرةً حديثة كما يُتوَهَّم وإنما أشار إليها بعض المتقدمون من أهل العلم.
- ملكة استحضار المعارف الكامنة هي رونق العلم وأبَّهة العالم، وطالب العلم إنما تعلّم وعانى ليعرف الجوابَ حال الحاجة إليه، فإذا لم يستحضر الدليل أو لم يتذكر المعلومة التي بين جنبيه؛ فاتتْ عليه الثمرة التي كان يرتجيها.

أهم التوصيات :

- الاهتمام بالعلوم الشرعية والأطروحات الفكرية والشخصيات والكتب ومدارستها .
- التدريب استحضار المعارف الكامنة ويفتنُّون في تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة.

المصادر المراجع

أولاً : المصادر :

- القرآن الكريم.

ثانياً : المراجع

- أعيان العصر وأعوان النصر، الصفدي، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).
- الاستقامة، ابن تيمية، جامعة الإمام، الطبعة الثانية (١٤١١هـ).
- بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، مجمع الملك فهد، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).
- تعليم المتعلم، الزرنوجي، الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).
- إنباء الغُمر، ابن حجر، لجنة إحياء التراث (١٤١٥هـ).
- الأشباه والنظائر، ابن نجيم، دار الفكر، تصوير عن الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ).
- شذرات الذهب، ابن العماد، دار ابن كثير، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).
- جامع بيان العلم، ابن عبد البر، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ).
- حوارات المسيري، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٣١هـ).
- رسائل الجاحظ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية.
- رسائل الرافعي، جمع وترتيب محمود أبو ريّة، دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٩هـ).
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ).
- المحدث الفاصل، الرامهرمزي، دار الفكر، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).
- مدارج السالكين، ابن القيم، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ).